الجغرافيا الحديثة

رسالتها وأغراضها

لمصطفى عامر
استاذ الجغرافيا في الجامعة المصرية

(رسالة الجغرافية الحديثة وأغراضها) لجغرافيا كما لكل علم من العلوم رسالة تؤديها ، وربما كانت رسالتها هذه اكثر اتصالاً بالانسان من رسالة اي علم آخر . فهي لا تدرس ، كما يحسب الكثيرون ، الظاهرات الطبيعية على سطح الارض فحسب ، بل هي تتناول كذلك دراسة الانسان ومظاهر نشاطه ، وتبحث في اثر البيئة في حياته ، وأثره هو في البيئة التي ينشأ فيها . ومن هاتين الناحيتين ، الناحية الطبيعية والناحية البشرية ، اي دراسة المكان ودراسة الانسان ، يتكوّن علم الجغرافيا الحديث

ولا يقتصر شأن دراسة الظاهرات الطبيعية على تفسير بعض أسرار هذا الكوكب الذي نعيش فيه ، بل هي تتعدّى ذلك الى شرح طرق المعيشة وأساليب الحياة عند شعوب الارض وجماعاتها ، كل منها في بيئته الخاصة . وتوضح لنا كيف ان المسائل التي تواجه كلاً منها ، سواء اقتصادية كانت أم سياسية ، هي الى حد كبير متصلة بالاحوال الطبيعية المحيطة بها . فاذا عرفت الامم المختلفة كل هذا ، امكنها ان تنظر بعين العطف الى مشكلات جيرانها ، وأن تتفاهم وتتعاون معهم على حل تلك المشكلات بما يلائم مصلحة الجميع . فيقل الاحتكاك بين الشعوب ويحل التفاهم محل الخصام ، وتتغلب المصلحة المشتركة على المصلحة الخاصة ، وتصبح الحياة على سطح الارض اسعد حالاً مما هي عليه الآن

هذه هي الروح التي تبثها الجغرافيا الحديثة في نفس كل من يتعلمها . فهي تؤمن بالوطنية المعتدلة لا بالوطنية الطائشة ، وتدعو الى التعاون بين شعوب الارض لأنها اجزاء من الوحدة الارضية الكبرى التي لا تقبل تجزئة ، إذ لا يمكن لجزء منها ان يعيش عيشة مستقلة عن بقية أجزائها . وقد ساعد تطور وسائل النقل في العهد الاخير ، كما ساعد التقدم الاقتصادي ، على توثيق الرابطة بين الامم ، واصبح كل منها عضواً من اعضاء الجماعة البشرية يمس العضو الآخر ، كما صار لكل حادث يحدث في ركن من اركان المعمورة صدًى في بقية أركانها . فسائل الانتاج والاستغلال ، ومسائل الاسواق والتوزيع ومسائل الهجرة والاستعمار ،

كلها اصبحت مسائل عالمية، ولا يمكن حلها إلا بتفاهم امم الارض اجمع والتوفيق بين مصالحها المشتركة

من اجل هذا كانت دراسة الجغرافيا ضرورية لكل شخص مثقف يرغب في فهم ما يجري حوله من حوادث ووزن الامور بميزانها الصحيح ، ولاسيما من يتصدّى لمعالجة المسائل القومية والدولية . فاتجاهات الجغرافيا الحديثة ، كما يرى القارىء ، تختلف تماماً عن روح الجغرافيا القديمة ببياناتها المطوّلة عن الرؤوس والخلجان ، والبحار والأنهار ، والسهول والوديان ، والمسافات والأبعاد . على انهُ من الغريب ان تبقى تلك الصورة البالية لعلم الجغرافيا شائعة بين أغلب المثقفين، ومنهم من يُعد من قادة الرأي وأساطين المعرفة . ولطالما سألني كثيرون ، ومنهم بعض الزملاء الافاضل في الجامعة نفسها ، هل للجغرافيا شخصية مستقلة ، تسوّغ وجودها كعلم خاص . فالجغرافيا عندهم مزيج من علوم مختلفة ، اذ هي كما يقولون ، تستمد بعض الحقائق من علوم الجيولوجيا والمتيورولوجيا والنبات والحيوان ، كما انها تتصل اتصالاً وثيقاً بعلمي الانثروبولوجيا والاجتماع . وليس هناك زعم أبعد عن الحقيقة من تلك الآراء . أولاً لان اتصال العلوم بعضها ببعض واعتماد كل منها على الآخر هو من الامور المعترف بها في كل عصر وفي كل دراسة ، وثانياً لان الجغرافيا الحديثة وان كانت تعتمد على بعض النتائج التي وصل اليها الباحثون في شتى العلوم ، فان اعتمادها هذا لا يتعدّى الاستعانة بتلك النتائج في شرح وجهات النظر الجغرافية

ولقد سبق أن حدّدنا أغراض الجغرافيا في أنها تدرس الظاهرات المختلفة المتصلة بالبيئة التي يعيش فيها الانسان ، كما أنها تدرس مظاهر نشاط الانسان كنتيجة لتلك الظاهرات . وهذا البحث لا يُعنى به علم آخر غير علم الجغرافيا . فالانسان في هذا الكوكب يعيش في اقاليم متباينة أو متشابهة ، يتميز بعضها عن بعض في أحوال سطحها ومناخها ونباتها ، وهو موزع على سطح الارض توزيعاً يتبع قواعد خاصة ، وهو في بعض الجهات يزرع الارض ويعيش على ناتجها ، وفي جهات أخرى يعيش على الصيد او الرعي ، أو يشتغل بالصناعة أو التجارة . والانسان عامل على تغيير وجه المعمورة بشتى الوسائل فهو يقطع الاحجار من محاجرها ويستخرج المعادن من باطنها ، وهو يحفر الترع والآبار ويسوق ماء الري الى جهات لم تكن تعرف غير الجفاف والجدب ، وهو يشق الطرق ويخرق الجبال ، ويقطع الاشجار من الغابات ، ويردم البرك والمستنقعات ، وهو يقوم بانشاء المدن والموانىء ، وإيجاد المواصلات السهلة السريعة بين بلاد الارض وما كثيها . كل هذا يمثل بعض نواحي نشاط الانسان على سطح الارض ، والجغرافيا تدرس كل تلك النواحي وتبحث في أسبابها ونتائجها ، وجميعها يدخل في ميدانها وضمن دائرة نفوذها ، ويسوّغ قيامها كعلم مستقل عن بقية العلوم

﴿ الدراسات الجغرافية في الجامعة المصرية ﴾ : أما وقد حدّدنا أغراض الجغرافيا وبيّنا رسالتها ، فيجب علينا أن ننتقل الى بحث مقام هذا العلم بين الدراسات المختلفة في الجامعة المصرية . نشأت الجغرافيا نشأة محدودة ، فكانت عند قيام الجامعة في عام ١٩٢٥ تكوّن هي والتاريخ قسماً واحداً من أقسام كلية الآداب . وكانت الدراسة في هذا القسم واحدة في السنتين الاولين ، ثم تتفرع بعد ذلك الى فرعين ، أحدهما للتخصص في الجغرافيا والآخر في التاريخ . ولم يكن للجغرافيا في ذلك الوقت مكان خاص بها ، كما لم تكن لديها الادوات المختلفة التي يستعان بها عادةً في تدريسها . وكانت الدروس تلقن باللغة الفرنسية ، مما حوّل جهود الطلبة من التحصيل العلمي الى العناية باللغة . غير أن هذه الحال لم تدم طويلاً ، ففي سنة ١٩٢٧ صارت اللغة العربية لغة التدريس ، وان كان قد بقي النظام السابق دون أن يلحقهُ تغيير أو تبديل . وفي سنة ١٩٣٠ نال قسم الجغرافيا استقلاله ، وأصبح قسماً قائماً بذاته ، وأخذ ينمو نمواً سريعاً ويزداد نشاطه وتتسع دائرة اعماله ، واتخذ لهُ مكاناً فسيحاً يسمح بانشاء مكتبة جغرافية تحوي عدداً كبيراً من الكتب والمراجع الحديثة ، كما يسمح بانشاء متحف دراسي صغير ، وأنهاء للمحاضرات والدراسة العملية . ويدرس الآن في هذا القسم سبعون طالباً ، منهم طالب يستعد لدرجة دكتور في الآداب ، وستة يتنسبون لقسم « الماجستير » والباقون في دراسة « الليسانس » . وقد زاد عدد اعضاء هيئة التدريس فأصبح ستة أساتذة ومدرسين ، ثم ساعد يقوم بالاشراف على الناحية العملية من الدراسة كالمساحة والخرائط . اما التدريس فيتناول جميع فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية (وتشمل الناحية البشرية ، الجغرافيا الجنسية والاجتماعية والتاريخية والاقتصادية والسياسية والاقليمية) ، ويعنى القسم عناية خاصة بالدراسات الجغرافية الخاصة بمصر وحوض النيل ، وذلك من جميع النواحي التي ذكرناها . ويقوم القسم بتعويد طلابه البحث والدراسة الشخصية ، فهو يختار في بدء كل عام موضوعاً جغرافيًّا ، توزع اجزاؤه على الطلبة ، وهم يحاضرون فيه زملاءهم واساتذتهم بعد اعداده ، ويناقشون فيه بعد الانتهاء من القائه . ودروس البحث هذه ولو أنها مقتصرة على طلبة الليسانس الممتازين ، الا أن الكثيرين من الطلبة العاديين يأتون اليها بمحض رغبتهم مستمعين ، وهي ظاهرة تدل على ميل واضح للتحصيل دون نظر الى اي اعتبار آخر . هذه كلمة موجزة عن النظام الحالي لقسم الجغرافيا ، وهو نظام لا نعتقد انهُ يقل شأناً عن نظم اقسام الجغرافيا ومعاهدها التي عرفها في الكثير من الجامعات الاجنبية ، وانهُ ليحق لنا فعلاً ان نفخر بذلك كل الفخر . وللقسم صلات طيبة ببعض الجامعات الاوربية ، وقد نشأت تلك الصلات من العلاقات الشخصية بين الاساتذة المصريين واساتذة الجغرافية بتلك الجامعات . وقد ساعد هذا الجو في كثير من الاحيان على تسهيل مهمة بعثاتنا الجغرافية الى الخارج

وعلى الخصوص الى بريطانيا العظمى وفرنسا . وقد سمحت جامعة لفربول كما سمحت جامعة مانشستر لخريجي قسم الجغرافيا بالتحضير للدرجات العالية مباشرة، وذلك بعد أن تحققوا من أن المستوى الذي بلغته دراسة الجغرافيا في الجامعة المصرية لا يقل عن المستوى المعترف به في معاهدهم. وقد كانت البداية عند ما نبتت فكرة ارسال بعثة جغرافية الى بلاد اليمن ان تشترك جامعة مانشستر مع الجامعة المصرية في هذا العمل العلمي الجليل ، ولكن حال دون تنفيذ هذا المشروع على الوجه السابق قيام ظروف سياسية خاصة نشأت عن الحرب الايطالية الحبشية . على اننا قد ذكرنا هذا المثل ليكون دليلاً آخر على ثقة الجامعات الاوربية بمعهدنا ورجاله

﴿ دائرة نشاط قسم الجغرافيا ﴾ : أما دائرة قسم الجغرافيا فتظهر في نواحٍ شتى . فهناك أولاً ناحية تعريف النشء ببلادهم ، وهي تتمثل في الرحلات التي ينظمها القسم بين حين وآخر لأغراض جغرافية بحتة . وقد قام الطلبة والاساتذة برحلات مختلفة الى منخفض الفيوم وخليج السويس وشبه جزيرة سيناء والواحات الخارجة ، وهذا فضلاً عن الزيارات القصيرة لبعض الجهات في منطقة القاهرة وهي زيارات لا تستغرق في العادة أكثر من يوم واحد . ويكاد يكون من المسلم به أن من لا يعرف جغرافية بلاده ولا يعي تاريخها ، لا يمكن ان يكون وطنيًّا نافعاً لوطنه مفيداً لقومه ، كما أن من يجهل الحقائق الاولية لجغرافية العالم يكون محدود المعرفة والثقافة . ويكون حكمه على الحوادث والشؤون العالمية حكماً ناقصاً

ثم هناك ناحية النشاط التي تظهر في المحاضرات العامة ونشر المقالات العلمية والكتب الجغرافية ، ومحصول القسم من تلك الناحية محصول طيب اذا قيس بمحصول غيره من الاقسام . وقد ظهرت بعض ابحاث اساتذة القسم في المجلات المصرية كمجلة الجمعية الجغرافية الملكية ومجلة كلية الآداب ، وفي بعض المجلات الانجليزية والفرنسية كمجلة « الجغرافيا » التي تصدر بمانشستر ومجلة المعهد الانثروبولوجي الملكي بلوندرة ومجلة « الانثروبولوجيا » الفرنسية . وقد طبعت الجامعة المصرية على نفقتها مجلدين ضخمين يحويان نتائج البحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ وهو البحث الذي يقوم به قسم الجغرافيا في جهة المعادي

كذلك اشترك القسم في المؤتمرات الجغرافية الدولية المختلفة منذ عام ١٩٢٨ ، وقد ألقى ممثلوه في كل مؤتمر من تلك المؤتمرات ابحاثاً جغرافية عن مصر . وقد اشترك القسم كذلك في عدة مؤتمرات أخرى منها المؤتمر الدولي للسكان والمؤتمر الدولي لعلوم ما قبل التاريخ والمؤتمر الدولي للعلوم الانثروبولوجية . ونجح قسم الجغرافيا في العام الماضي في تنظيم بعثة جغرافية لارتياد بلاد اليمن وحضرموت ودراسة احوالها الفزيوغرافية والبحث عن ادلة تثبت سكنى الانسان فيها في عصر ما قبل التاريخ . وقد اشترك في تلك البعثة قسم اللغة العربية لدراسة اللهجات والنقوش القديمة،

وقسما الجيولوجية والحشرات بكلية العلوم وكان المشرف على البعثة أحد أعضاء هيئة التدريس بقسم الجغرافية ممن عرفوا بالجد والنشاط وقوة الملاحظة والولع بالبحث والتدريس. وقد قضت البعثة في تلك البلاد زهاء ثمانية شهور، جمعت في خلالها كثيراً من المعلومات القيمة، وهي تشتغل الآن بدرسها وفحصها تمهيداً لنشر نتائج بحثها في الاوساط العلمية. هذا ولا يخفى ما لموقع إقليم اليمن من شأن كبير في دراسة الكثير من مسائل الجغرافيا الطبيعية والبشرية، ولا سيما هجرات الشعوب القديمة وانتقالها، إذ اليمن حلقة اتصال هامة بين شرق افريقية وشبه جزيرة العرب

وفي الناحية التعليمية، يعنى قسم الجغرافيا عناية كبيرة بالسعي لتحسين تعليم الجغرافيا في المدارس المصرية. وقد اشتركت وزارة المعارف بعض رجاله في وضع مناهج الجغرافيا الجديدة في مراحل التعليم المختلفة، واتصل القسم في السنتين الأخيرتين بمدرسي الجغرافيا في مدارس القاهرة الثانوية، ونظم لهم محاضرات خاصة في تلك المادة يحضرونها في اوقات فراغهم. والقسم على اتصال دائم بخريجيه الذين يشتغلون بالتدريس والذين أصبحوا منتشرين في كل ناحية من نواحي القطر المصري حتى الجهات النائية أمثال مرسى مطروح والواحات الخارجة. ونحن نرجو من وراء هذا الاتصال أن نصل بتدريس الجغرافيا إلى المستوى اللائق به، وأن نشجع بعض المدرسين الممتازين على مواصلة ابحاثهم الشخصية في الجهات التي يقومون فيها بأعمالهم الرسمية

(حفائر قسم الجغرافيا في المعادي): أما الحفائر التي يقوم بها قسم الجغرافيا للبحث عن آثار عصر ما قبل التاريخ في المعادي فيرجع عهدها الى عام ١٩٣٠ حينما بدأ أول موسم للحفر وأسفر عن نتائج علمية خطيرة لم تكن في الحسبان. ولربما كان من الجدير بنا هنا ان نشرح الظروف التي حدت بالقسم الى القيام بتلك الابحاث علاوة على ما لديه من اعمال. فمن الدراسات الجغرافية التي تعنى بها دراسة الجغرافيا التاريخية، وهي دراسة جديدة لم تكن معروفة عندنا من قبل، والغرض منها تتبع الادوار المختلفة التي مرت فيها الحضارة المصرية منذ أن ظهر الانسان أول مرة في مصر، وبحث الجنس أو الاجناس البشرية التي تنتمي اليها، والاحوال الجغرافية التي سادت في خلال كل دور من تلك الأدوار. فكما اننا ندرس الجغرافيا البشرية لمعرفة مظاهر نشاط الانسان الحالي وعلاقة ذلك بالبيئة الطبيعية التي يسكن فيها، فاننا ندرس الجغرافيا التاريخية لمعرفة حياة الانسان واعماله منذ العصور الحجرية. وعلاقة ذلك بالظروف الفزيوغرافية والمناخية والنباتية والحيوانية في تلك العصور. من أجل هذا كانت دراسة عصر ما قبل التاريخ، وأن كانت متصلة بالناحية الاركيولوجية، الا انها متصلة كذلك، والى حد بعيد، بالناحية الجغرافية. ومن هنا نشأ اهتمام الجغرافيين في كلية الآداب بدراسة عصر ما قبل التاريخ، وبدأت رغبتهم تتجه الى فحص الجهات الاثرية القريبة من القاهرة والتي يرجع عهدها الى ذلك العصر حتى تسير الدراسة النظرية جنباً الى جنب مع التطبيق العملي

وقد وقع الاختيار فعلاً على الأكوام القائمة في الصحراء شرقي المعادي ، وحفرت الجامعة في تلك الجهة في خلال المواسم الستة السابقة (سنة ١٩٣٠ — سنة ١٩٣٦) ، وبلغت المساحة التي تمَّ حفرها حوالي ثمانية أفدنة . وقد أدى هذا البحث الى الكشف عن حضارة جديدة من حضارات مصر في العصر السابق للتاريخ ، وهي حضارة لم يكن يعرف عنها شيء من قبل ، سكنَ أصحابها اقليم المعادي قبل قيام الأسرات بعضة قرون ، وعاشوا بالزراعة وتربية الحيوان . وقد حذقوا صناعة الاسلحة الصوانية والآنية الفخارية والحجرية ، وعرفوا النحاس وصناعة النزل والنساجة ، وشيدوا أغلب مساكنهم من أغصان الاشجار والطين . وان كان البعض قد حفر كهوفاً عميقة في التربة الرملية ، واستخدم البعض الآخر الحجر والطوب في البناء ، وربما كان ذلك لاول مرة في شمال مصر . وقد جلبوا معدن النحاس والمانجنيز من سيناء ومادة القار (الاسفلت) وبعض السلع من فلسطين ، واتصلوا بالصعيد بوساطة النيل كما يتبين ذلك من دراسة بعض آثارهم .

هذه هي أهم مظاهر الحضارة الجديدة التي كشف عنها قسم الجغرافيا في المعادي ، والتي أدّى كشفها الى القاء ضوء كثير على حياة الانسان في الدلتا في عصر ما قبل التاريخ ، وعلى علاقاته بجيرانه سواء أكان ذلك في مصر أم في خارجها . وقد كانت كل معلوماتنا عن ذلك العصر تأتي من الصعيد ، ونسب الكثير من العلماء نشأة الحضارة المصرية الى الوجه القبلي . والمباحث الجديدة في المعادي وفي غرب الدلتا (حيث تعمل بعثة نمسوية) أظهرت ان الدلتا كانت دون شك أعرق حضارة وأعظم تقدماً وأكثر عمراناً من الصعيد . وقد ساعد على تقدمها هذا ثروتها الزراعية ومراعيها الغنية وموقعها الجغرافي الذي سهل اتصالها بالاقاليم المحيطة بها . ونحن اليوم نؤمن بان الحضارة المصرية هي وليدة البيئة المصرية وليست حضارة غربية وصلت مصر من الخارج ، كما نؤمن أن تطور تلك الحضارة استمر منذ العصور الحجرية الى اليوم ، وقد حافظت تلك الحضارة على صبغتها المصرية على الرغم من الغزوات التي انتابت هذا البلد في اوقات مختلفة

وقد كان من نتائج تلك الاعمال الموفقة في المعادي أن اخذت تتصل بقسم الجغرافيا بعض الهيئات الاوربية التي تعنى بدراسة عصر ما قبل التاريخ في مصر ، وتستعين به في بحوثها . فقد قام احد اعضاء هيئة التدريس فيها بدراسة مجموعة الآلات الصوانية التي جمعتها البعثة البريطانية التي تقوم بالحفر في جهة أرمنت ، وكان لهُ شرف كتابة جزء كبير من تقرير هذه البعثة ، كما اشترك في الابحاث التي تقوم بها بعثة بريطانية اخرى في اقليم الفيوم . وقد قدمت تلك البعثات الى متحف القسم بعض ما وجدتهُ من آثار ، وفي هذا مكسب كبير للمجموعة الدراسية النفيسة لعصر ما قبل التاريخ في مصر ، وهي المجموعة التي يعمل القسم على إعدادها وتنظيمها لتضاف الى متحف كلية الآداب في المستقبل